الفصل الثانى

موقف السلطة من الفقهاء على عهد بنى أمية فى الأندلس

عصر الإمارة (١٣٨-٣٠٠هـ)

محمد عبدالحميد عيسى

كانت السنوات الأولى للوجود الإسلامى على ارض الأندلس، والتى بدأت منذ عام اثنين وتسعين من الهجرة الموافق للسنة الحادية عشر من بداية القرن الثامن الهجرى، حافلة بالأنشطة الحربية والعسكرية، سواء فى مسألة الفتح ذاتها أو ما تمخضت عنه السنوات من حروب أهلية بين العرب والبربر أحياناً والعرب القيسية والقحطانية فى أحيان أخرى، مما ركز اهتمامات المؤرخين والكتابات التاريخية على تتبع الأخبار العسكرية وأخبار الولاة والأمراء وزعماء التمرد والثورة ومحاولات فرض السيادة على أقاليم الأندلس المتباعدة.

ترتب على تلك الأوضاع صعوبة تتبع جذور ظاهرة تكون طبقة قوية من المجتمع الاندلسى يمكن تسميتها (بطبقة الفقهاء) أو إن شئت الدقة طبقة رجال الدين، والذين كان لهم دوراً خطيراً فى مناحى الحياة المختلفة خلال الوجود الإسلامى على أرض الأندلس.

ومع ذلك كله.. يمكن تتبع بدايات تكون هذه الطبقة من الروافد التالية:

أولاً: ما صحب الجند الفاتح من مجموعة من التابعين يختلف المؤرخون فى تحديد اعدادهم. ويروى الحميدى "أن موسى بن نصير قد سار إلى الأندلس فى عشرة آلاف فارس، وكان معه من التابعين - رضى الله عنهم - حنش بن عبدالله الصنعانى، وأبوالنضر جيان بن ابى جبلة فى عشرين رجلاً منهم، ويضيف نقلاً عن ابن حبيب ٢٣٧/١٧٩هـ، ٨٥٣/٧٩٦هـ، قوله (ودخل الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف نحو من عشرين رجلاً بهؤلاء وغيرهم أتى موسى بن نصير)[١].

وكان لهذه المجموعة سلطة تحديد اتجاه القبلة فى المساجد الجديدة وامامة الجند فى الصلاة، وبطبيعة الحال كان لهم ولغيرهم الأولوية فى الافتاء، وابداء الرأى فيما استجد من أمور وغير ذلك مما تطلبه الوضع الجديد فى الأندلس.

ومع مرور الأيام، كان لهؤلاء التابعين ومن كان قريباً منهم فى العلم أو من اتسم بالتقوى، الدور التوجيهى الأكبر للجنود المسلمين عرباً أو غيرهم من سكان الشمال الافريقى، وفى تحديد علاقاتهم باصحاب البلاد الأصليين.

ثانياً: رافداً آخر من روافد تشكيل هذه المؤسسة الدينية تمثل فى ضرورة وجود بعض الوظائف المرتبطة بالدين، ومن أهمها القضاء.

ولقد عرفت بلاد الأندلس باكراً جداً نظام القضاء، وليس من المستبعد وجود بعض القضاة الفاتحين، وإن لم يكن مؤكداً إلا ما أشار إليه محمد بن حارث الخشنى من وجود قضاة فى عهد الولاة الأول، وخاصة القاضى/ مهدى بن مسلم، الذى ولاه الأمير عقبة بن الحجاج السلمونى (١١٦/١٢١هـ) على قضاء قرطبة.

وكان الرجل عالماً، تقياً، ورعاً، طلب منه عقبة أن يكتب بنفسه صيغة عقد توليته القضاء، فكتب عهداً متميزاً، اتخذه الناس بعد ذلك أسوة حيث جاء فيه ضرورة تقوى الله وطاعته والبحث عن مرضاته فى السر والعلانية، معتصماً بحبله المتين وعروته الوثقى، موفياً بعهده، متوكلاً عليه واثقاً به، وفيه أيضاً.. ضرورة الالتزام بكتاب الله وسنة رسول الله، والتقرب اليهما باجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه، واعطاء الحقوق من وجبت له، وأن يحاسب نفسه فى يومه وغده فيما تقلد من الامانة الثقيل حملها، الباهظ عبؤها، فإنه محاسب وموعد وموعود...إلخ. ويأتى النص كاملاً بعد ذلك[٢].

ومن بعد مهدى بن مسلم.. جاء عنترة بن فلاح، وكان حريصاً على مصالح الناس لا يقصر فى مطالبهم ولا فى احتياجاتهم، حتى ولو بذل فى سبيل ذلك كل ما يملك، ويروى عنه أنه تبرع بكل ما يملك لكى يكون صادقاً فى دعوته إلى الله بنزول المطر بعد أن أصاب الأندلس على أيامه الجفاف.

ويورد الخشبى اسم مهاجر بن نوفل القرشى على أنه ثالث أول قضاة فى الأندلس، وعلى ايديهم تكونت وظائف أخرى مثل: أهل الفتيا، والمشورة والشهود والمزكين وغيرهم ممن أصبحوا أعضاء بارزين فى تلك الهيئة الدينية[٣].

ثالثاً: رافداً آخر ساهم فى وجود الفقهاء وغيرهم من علماء الدين يتمثل فى بدء الحياة التعليمية على أرض الأندلس إذ كان العرب المسلمون عامة، والمتعلمون منهم خاصة، والتابعين ومن ظن بنفسه علماً تحديداً هم أوائل

المعلمين على أرض الأندلس.. ولقد أورد ابن القوطية ما يدل على أن بداية الحركة التعليمية فى الأندلس إنما ترجع إلى عصر الولاة وذلك.. باشاراته إلى قيام الصميل ابن حاتم، أكبر زعماء العرب القيسية وأبرز الشخصيات السياسية فى الأندلس بعد عام ١١٦هـ وحتى سنة ١٣٨هـ بزيارة لمعلم يعلم الصبيان ومحاولته التدخل فيما يعمله لهؤلاء[٤].

وتطور الأمر حتى غداً المعلمون جماعة كبرى عند مجئ الغازى من قيس مع عهد عبدالرحمن الداخل.

رابعاً: ويأتى رابع هذه الروافد من جماعات من العلماء على مختلف مستوياتهم العلمية مهاجرين من الشرق الإسلامى نتيجة التطورات السياسية فى هذه البلاد وخاصة سقوط الدولة الاموية عام ١٣٢هـ وقيام الدولة العباسية ومل تعرض له الأمويون وأنصارهم من مطاردة وتنكيل مما حدا بالكثيرين منهم إلى الهجرة إلى الأندلس حاملين معهم علوم الشرق الإسلامى وكان نجاح عبدالرحمن الداخل فى تأسيس دولة اموية فى الأندلس عاملاً هاماً فى فتح ابواب هذه البلاد أمام تلك العناصر المضطهدة والتى اتت إلي الأندلس بما تحمله من علوم ومن حياة اجتماعية ومستوى ثقافى مما كان سبباً فى اذكاء شعلة الثقافة والعلوم وتوطئة السبيل أمامها للانتشار والذيوع.

خامساً: الرافد الأخير فى نظرى.. تمثل فى مجموعة الاندلسيين الراحلين إلى المشرق الإسلامى لاداء فريضة الحج وتلقى العلم وعاد هؤلاء الحجاج العلماء إلى الأندلس فنالوا بين الناس مكانة عالية وشجع الأمير عبدالرحمن الداخل على ذلك باهتمامه كثيراً بالعلماء ورجال الدين ومن ثم تقدمت الدراسات فى عهده تقدماً كبيراً وزادت رحلات الطلاب إلى المشرق ممن اتموا تعليمهم الأول فى الأندلس.

وظهرت فى مجالس العلم فى القيروان والاسكندرية والفسطاط ودمشق وبغداد ومكة والمدينة أسماء طلبة اندلسيين، خرجوا للعلم أو الحج أو التجارة، وعاد هؤلاء بعد ذلك إلى بلادهم متمتعين بسمعة عالية وبمكانة أهلتهم للاشتراك فى من اسميتهم طبقة الفقهاء فى الأندلس.

بنو أمية فى الأندلس

كان عام ١٣٢هـ/٧٥٢م عاماً سيئاً فى تاريخ أسرة الامويين خاصة

ودولتهم عامة، ففيه سقطت هذه الدولة نهائياً، وقتل مروان بن محمد آخر خلفائهم، ومن بدايته تعرض الامويين لعملية استئصال كاملة سعى إليها بجدية من تولى الخلافة من العباسيين، ولم ينج منهم إلا من استتر أو رحل بعيداً عن الشام والعراق.

وكان من هؤلاء الأمير عبدالرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبدالملك الذى نجى بمعجزة من ملاحقة العباسيين له، وتمكن من الهرب من الشام إلى العراق وحين اكتشف مكانه بالعراق هرب إلى الشام عند اخواله من بنى نفرة يتعقبه ولاة العباسيين وانصارهم دون جدوى.

وعلى مدى ست سنوات كاملة من الاختفاء والمطاردة والمغامرة أيضاً تمكن عبدالرحمن بن معاوية مستعيناً ببعض موالى الامويين فى الاندلس، من الوصول إلى سدة الحكم فى قرطبة، وكان ذلك فى عام ١٣٨هـ، ٧٥٨م.

شرع عبدالرحمن منذ ذلك التاريخ فى بناء دولة اموية جديدة فى الأندلس بدلاً من التى سقطت فى دمشق ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً رغم كل الصعوبات التى واجهته، وليس ادل على ذلك أكثر من بقاء تلك الدولة الاموية حية حتى الثلث الأول من القرن الخامس الهجرى ٤٢٢هـ، ١٠٣٠م تقريباً.

وكان من أولويات مهام عبدالرحمن الداخل وضع السياسة التى سيتبعها بين طبقات المجتمع واهمها دون شك العلاقة مع طبقة رجال الدين وهى السياسة التى سار عليها ابناؤه من بعده، وإن تباينوا فى بعض تفاصيلها من حين لآخر.

ويرى الدكتور/ حسين مؤنس "**أنه إن كان العنصر الدينى جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس فى كل بلاد العالم الإسلامى، وأن الحاكمين والمحكومين كانوا يتحرون جهد الطاقة أن تكون تصرفاتهم مطابقة لتعاليم الدين أو متمشية معه على الأقل، ألا أنه كان فى الأندلس له أهمية خاصة ولذلك لم يترك لضمير الحكام أو تقديرهم، وإنما اتخذ شكلاً واقعياً فى صورة علماء وفقهاء يقفون إلى جانب الحاكم ويشاركونه فى الحكم بصورة فعلية بحيث يبدو - أمام الناس على الأقل - أن الجانب الدينى من أعمال الدولة يشرف عليه رجال دين عارفون بشئون العقيدة، ولا خوف نتيجة لذلك من انحراف الدولة عن قواعد الدين وأنه مهما كان رأى رجال العلم المتحققين فى رجال من علماء الأندلس وخاصة الأوائل منهم، إلا أن أمثال اولئك الرجال قد ادوا وظيفتهم فى بناء الدولة الاموية فى الأندلس، واخفقوا تصرفاتهم فى نظر الرعية تأييداً حقيقياً**

كان له أبعد الاثر فى تثبيت دعائم اركانها وتمكينها من السيطرة الفعلية على بلادها، وتمتع البيت الاموى الاندلسى بثقة الشعب الذى كان يحكمه، وهى ثقة لم يظفر بها الامويين فى المشرق ولا العباسيون خلال عصرهم الذهبى"(٥).

ويفسر المؤرخون المسلمون ذلك الارتباط العضوى بين الحكام الامويين فى الأندلس والفقهاء إلى حاجة الامويين الملحة إلى سند شرعى يدعم قيامهم بالحكم لأن امارتهم فى الأندلس رغم ما تهيأ لها من أسباب القوة السياسية والعسكرية إلا أنها لم تخرج من الناحية الشرعية الصرفة عن كونها امارة خارجة على الخلافة العباسية، وهى الخلافة التى استقر لها الأمر فى العالم الإسلامى بأجمعه وظلل حكمها كل الاقاليم ما عدا الأندلس.

وبما أن المسلمين فى كل بقاع العالم الإسلامى كانوا يوقرون منصب الخلافة ويحترمون من له السيطرة على الحرمين الشريفين، ولم يكن يخفى على أحد من أهل الأندلس موقف عبدالرحمن الداخل من الخلافة العباسية حتى وصل الأمر إلى قيام المتطلعين إلى حكم الأندلس بمعاداة الداخل رافعين لواء الخلافة العباسية، وجرت أكثر من محاولة لاسقاطه نجا منها بصعوبة وبعد عناء شديد.

كان إدراك عبدالرحمن الداخل لتلك الحقائق سبباً رئيسياً فى دم ادعائه الخلافة، بل ودعوته على منابر الأندلس للخلفية العباسى.

وظل على ذلك زمناً حتى رسخت أقدامه فى حكم قرطبة، فقطع الدعوة للعباسيين ومع ذلك لم يجرؤ هو أو أحد من أبنائه على حمل لقب الخلافة، بل كان يخاطب فى أحسن الاحوال بلقب "ابن الخلائف" وضرب العملة فى ايامه باسم (الخليفة العباسى).

وما كان ذلك كله ليخدع الناس كثيراً، لأن الصراع بين الخليفة ابى جعفر المنصور العباسى، وعبدالرحمن لم يكن خفياً على أهل الأندلس مما أجبر الامويين على البحث عن سند شرعى يساعدهم على البقاء فى السلطة خاصة وأن المجتمع الاندلسى بقبائله العربية والبربرية وعناصره الاسبانية ما كان يمكن ادماجه إلا تحت مظلة دينية وسند شرعى وسلطان روحى حتى يمكن بالفعل السيطرة عليه وادراته. وكان هذا كل سبباً فى ايجاد مصلحة مشتركة بين الحكام الامويين وطبقة رجال الدين وخاصة الفقهاء فى الأندلس.

رحب فقهاء الأندلس بذلك الاتجاه وبذلوا جهدهم فى الاستفادة منه وجاءت ثمار جهودهم الأولى فى اختيار الأمير هشام عبدالرحمن الداخل ليكون الحاكم

بعد والده رغم عدم كونه الأكبر.

كان سليمان هو الأكبر، وقامت المنافسة مع أخيه هشام على ولاية العهد واجتهد كل منهما فى تمهيد الطريق لنفسه.

كان سليمان بطبيعته.. رجل حرب وسياسة، وكانت وسيلته بطبيعة الحال الاعتماد على جند ورجال السياسة. بينما كان هشام يبذل جهوده مع العلماء والفقهاء مستغلاً ميوله العلمية وطبيعته التى مال بها نحو التدين، فاجتذب إلى جانبه طائفة رجال الدين الذين بذلوا جهودهم فى تجميل صورته أمام العامة وإظهاره للناس بمظهر التقى المؤمن الذى يحترم الدين ويرعى قواعده مقارنة بأخيه سليمان الذى تم تصويره فى هيئة رجل غير ملتزم، ونجح الفقهاء فى الدفع بهشام إلى قمة السلطة بعد والده، ولم يتردد هذا الورع التقى فى أن يقف بقوة ضد مطالبة أخيه الأكبر سليمان بالولاية، وحاربه محاربة شديدة حتى اضطره هو وحليفه عبدالله الأخ الثانى إلى الهجرة من الأندلس ونفيهما إلى بلاد المغرب ولم ينس أن يرضيهما باعطائهما حقهما فى ميراث والدهم مبلغاً كبيراً من المال ضمن به عرش الولاية فى قرطبة.

هشام الرضا والفقهاء

وضع الأمير عبدالرحمن الداخل بذور سياسة استرضاء الفقهاء ورجال الدين والعمل ما أمكن على اجتذابهم إلى جانب السلطة حتى ولوترتب على ذلك التنازل لهم عن بعض السلطات والسماح لهم بما قد لا يسمح به فى فترات أخرى، فبينما كان عبدالرحمن عنيفاً مع رعيته، سريعاً إلى العقاب والبطش لأقل بادرة عصيان أو مخالفة، نجده طويل الصبر، واسع الحلم مع هؤلاء حتى أنهم فى بعض الأحيان قد اتخذوا موقفاً معارضاً لرغبات الأمير دون أن يخشى هؤلاء أية ثورة غضب من الأمير، كما وقف موقفاً ليناً من رفض مصعب بن عمران تولى القضاء له.

ويأتى ابنه هشام الرضا ١٨٠ : ٢٠٠هـ، ليبدأ حكمه بتعيين مصعب بن عمران قاضياً، ومعتذراً له عن بعض مواقف والده ومؤكداً حسن استجابته حتى قال له (إن الأخلاق التى كنت تكرهها من أبى قد أمكنها الله منى، وبقى طيبها عليك لصلاح أمور المسلمين، ولو وضعت المنشار على رأسى لم أعترضك)[٦].

تدلنا هذه العبارة القصيرة على أن تلك الفترة القصيرة نسبياً كانت قمة

التفاعل والتزاوج بين السلطة والفقهاء فى الأندلس.

فقد أضفى هشام على نفسه صورة الأمير الورع التقى الذى يسلك سيرة النساك، والذى يقدر رجال الدين ويجلهم، ويضعهم فى المكان اللائق بهم، ومضى الفقهاء ينشرون هذه الصورة بين الناس ولقبوه (بالرضا) وهو لقب لم يحمله أحد من أمراء بنى أمية غيره، وتمكنوا من إقناع الناس بأن أميرهم إنما هو أمير تقى عادل يسير فى حياته وحكمه سيرة الصحابة والتابعين، وانتقلت هذه الآراء إلى المؤرخين الغربيين، فأشادوا به (ليفى بروفينسال)، و(لويس سواريث) وغيرهما مؤكدين اهتمامه بالفقهاء مانحا إياهم كل ما يستطيع من حماية وتأييد(٧).

وكان هشام يؤثر فى مجالس الفقهاء وخاصة مجالس الحديث والفقه، مما زاد الرابطة بينه وبين الفقهاء، والذين إلى جانب قيامهم بالدعاية له داخل الأندلس، فإنهم قد قاموا بنقل هذه الصورة المبالغ فيها إلى خارج الأندلس. فتروى لنا المصادر ثناء طلاب الأندلس على أميرهم فى مجلس الإمام مالك يبدى إعجابه بالأمير هشام ويشيد بعدله وتقواه ونقل عن مالك قوله (وددت لو أن لله زين موسمنا به)(٨) وساهم العداء المشترك عند كليهما للعباسيين فى التقريب بين الرجلين(٩).

فى عهد الأمير عبدالرحمن الداخل وخاصة على أيام هشام، رحل عدد من فقهاء الأندلس ورجال العلم به إلى المشرق الإسلامى إما لأداء فريضة الحج أو للاستزادة من العلم، ومن هؤلاء: زياد بن عبدالرحمن، وعيسى بن دينار، وسعيد بن أبى هند، ويحيى بن يحيى الليثى وغيرهم، فدرسوا على يد الإمام مالك بالمدينة واستقوا من علمه واجتهاده، وعادوا إلى الأندلسيين حاملين كتابه المشهور (الموطأ) ونقلوا إلى الأمير هشام إعجاب مالك به، فقام هذا بتمكين هؤلاء الفقهاء من نشر مذهب مالك فى الأندلس، وأوكل إليهم الوظائف الرسمية فى الدولة، حتى غدا مذهب الإمام مالك مذهب أهل الأندلس الغالب، ومن ثم قوى نفوذ هؤلاء الفقهاء ورجال الدين، وتربعوا فى أهم المناصب وكثر تدخلهم فى شئون الدولة، وكان لذلك آثار ترتبت عليها فيما بعد نتائج سياسية واجتماعية خطيرة(١٠).

وقد أصبح مؤكداً عند الجميع أن هشاماً قد استسلم فى حياته لهؤلاء الفقهاء، وأنه قضى حياته خاضعاً لأحكامهم مما أتاح لهم الفرصة لكى يتبوأ مكانة

عظيمة فى الأندلس[١١]، وعلى عكس ما قيل من أن هشاماً فى الواقع كان يوقر المالكيين ويقربهم، ويفيض عليهم عطاياه، إلا أنه كان يتحاشى أن يعهد إليهم بالمناصب الكبرى، لأنه - بما ركب فى طبعه من الحرص على سلطانه - كان يشعر بالطموح السياسى الذى ملأ نفوس الظاهرين منهم، وهو طموح سيظهر بصورة واضحة أيام ابنه الحكم المرضى، فاكتفى بتكريمهم واستشارتهم واتخاذ نفر منهم أهل شوراه، وكان ينافسهم فى مظاهر التقى والورع والحرص على رعاية الدين وعمارة المساجد وتعميرها بالمصلين[١٢].

الحكم الربضى والفقهاء

ولد الأمير الحكم بن هشام بقرطبة سنة ١٥٤هـ/٧٧١م، وتولى إمارة الأندلس وهو فى السادسة والعشرين من العمر، وكان شاباً متحمساً، شديد البأس والاعتزاز بنفسه جمع فى نفسه عدداً من المتناقضات.. فكان طاغية، حازماً، شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه، وكانت تحدوه مع ذلك نزعة إلى الانصاف والعدالة والتواضع[١٣].

وتجمع المصادر على أنه أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس، وأسرف فى تأييد هيبته، وجدد عهد أجداده بالمشرق ببذخه وروعته، واستكثر من المماليك والبطانة، وكان ميالاً إلى اللهو مولعاً بالصيد، يؤثر مجالس الندماء والشعراء على مجالس الفقهاء والعلماء.

لذلك كله سرعان ما بدأ الصدام بين الأمير والحكم والفقهاء، فانتزع منهم الكثير من مكانتهم التى مكنهم منها والده هشام، واتخذ سياسة ترمى إلى الحد من نفوذهم، وإبعادهم عن التدخل فى شئون الدولة فى الوقت الذى تطلع الفقهاء فيه إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش، أو أنهم كانوا يطمحون إلى إقامة جمهورية دينية[١٤].

من هنا بدأ الصدام سريعاً وقوياً بين الأمير ورجال الدين الذين ثارت نفوسهم سخطاً عليه، وجاءت سياسته قاضية على آمالهم وأمانيهم، فأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر، ويوغرون صدور الناس عليه بالدس والوقيعة، ويسبغون على دعايتهم شباب الوعظ والإرشاد، والحض على التمسك بأحكام الدين، ولم يلق الحكم بالاً إلى هذه الأعمال ...!! ومضى واثقاً من نفسه تساعده همة وثقة لا حدود لها فى قدرته على مواجهة أعدائه وكان

نجاحه فى القضاء على الثورات الداخلية وقسوته فى التعامل معها وتنكيله بكل من وقف فى مواجهته من العوامل التى زادت فى الفرقة بين الفريقين حتى بلغت الأمور أن حاول البعض تدبير مؤامرة للقضاء على الحكم وذلك فى عام ١٨٩هـ، واختاروا لقيادتهم محمد بن القاسم المروانى لكنه وشى بهم إلى الحكم الذى لم يتردد فى القبض على المتآمرين والتنكيل بهم بصورة قاسية، إذ قام بصلب اثنين وسبعين رجلاً وعلق جثثهم على شاطئ النهر فى مواجهة قصر الإمارة، وكان منهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسى، وكان قدوة فى الدين والورع، ومنهم أبو بكر بن عبد البر، ومصروم الخادم، وموسى بن سالم الخولانى، وولده، وغيرهم من أعيان قرطبة وعلماء دينها. ونجح باقى الفقهاء من زعماء الثورة فى الفرار والاختفاء ومنهم: يحيى بن يحيى الليثى، وعيسى بن دينار، وطالوت بن عبدالجبار وغيرهم مما يعنى أن الثورة فى حقيقتها كانت ثورة للفقهاء ضد الأمير.

لم تتوقف الحرب الخفية بين الحكم والفقهاء رغم فشل الثورة الأولى التى حدثت عام ١٨٩هـ، فهؤلاء مازالوا على موقفهم يشوهون صورة الأمير عند العامة حتى يقال أنهم كانوا ينادونه من فوق المآذن: الصلاة يا مخمور!!. بينما اتخذ الحكم من جانبه من الاستعدادات ما أبعده عن أهل قرطبة حتى تكررت ثورة أهل قرطبة عام ١٩٠هـ.

ولم يتردد الحكم مرة أخرى من القبض على زعماء الفتنة وصلبهم، بل والتمثيل بجثثهم، وسحق هياج العامة دون رأفة حتى هدأت العاصفة إلى حين.

حاول الحكم تهدئة الأمور، فعفى عن الفقهاء وخاصة يحيى بن يحيى الليثى، وعيسى بن دينار، وحين سلم الفقيه طالوت بن عبدالجبار نفسه - بعد الاختفاء - إلى الوزير ابن بسام لكى يشفع له عند الحكم، ورغم غدر الوزير بالفقيه وتقديمه للأمير على أنه قد تمكن من القبض عليه، إلا أن الحكم مال إلى المهادنة وعفى عن الفقيه، وحاول بذلك استرضاء الفقهاء فى بلده.

لم تمض الأمور على ما أراد الحكم، فلا الفقهاء استكانوا إلى وضعهم الجديد، ولا العامة رضيت لقادتها بهذا المصير ومن ثم ظل الصراع خفياً وقوياً بين الفريقين إلى أن وقعت الواقعة الكبرى عام ٢٠٢هـ، فيما يعرف فى التاريخ بثورة الربض.. وهى الثورة التى اشتقت من موقعها اسماً للأمير الحكم، فعوف بالربضى.. للقسوة الشديدة التى استخدمها فى إخماد هذه الثورة حتى بلغ الحد

درجة طرد مكان هذا الربض من الأندلس عامة، وقام بهدم المنـــازل وحـــرث الأرض وإغراقها بالماء، وظلت زماناً طويلاً خراباً لم يجرؤ أحد علـــى إعـــادة تعميرها، هذا بالإضافة إلى قيامه بقتل ثلاثمائة من زعماء الثورة، وصلبهم على نهر الوادى الكبير صفاً واحداً من المرج إلى المصارة. بل والأسوأ مـــن ذلـــك تروى المصادر أنه قد عزم على تتبعهم بالأندلس، وقتلهم حيث وجـــدوا فكســـر عليه بعض أصحابه وذكره صنع الله فيهم فارعوى وكف[١٥].

تمكن الحكم بهذه السياسة الشديدة من أن يقضـــى علـــى ســـلطة الفقـــهاء، ويبعدهم عن التدخل فى شئون الدولة، وكان إحساسه بعدم حاجة الإمارة الأموية فى عهده إلى هذا السند الشرعى الذى حافظ عليه أبوه وجده عاملاً من عوامـــل شدته على هؤلاء الفقهاء، فقد أحس بقوته، وقوة إمارته، ومضـــى أكـــثر مـــن أربعين سنة على حكم بنى أمية فى الأندلس، فاتخذ من أسباب القوة مـــا جعلـــه يربط على باب قصره ألف فرس عليها عشرة من العرفاء تحت يد كل عريـــف مائة فرس، فإذا بلغه عن ثائر ثار فى أطرافه، عاجله قبل استحكام أمـــرة. فـــلا يشعر حتى يحاط به[١٦].

لم يتردد الإمام ابن حزم فى وصف الأمير الحكم بأنه "كان من المـــهاجرين بالمعاصى، السافكين للدماء، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء"[١٧].

جانب آخر، اعترف به كل المؤرخين الذين أرخو للحكم، وهـــو احترامـــه الكامل للقضاء، ورويت فى ذلك روايات تثير العجب، وقد أقام فـــى أول أمـــره المصعب بن عمران قاضى أبيه، فلما توفى جعل بـــدلاً منـــه محمدبـــن بشـــير المعروف بحبه للعدل، وبعده عن الجور، وإنفاذه للحكم، وكـــان الحكـــم يحبـــه ويقربه - وكان يسلطه على نفسه وعلى ولده وعلى خاصيته والروايات فى ذلـــك كثيرة ومتعددة[١٨].

مرض الحكم فى أواخر عمره، وندم على ما سلف منه، وبرره بمحاولتـــه حفظ أهله ومكانته ودولته مما يتجلى فى وصيته التـــى تركـــها لابنـــه الأمـــير عبدالحميد الأوسط[١٩].

ويؤكد ذلك ما نقله لنا ابن عذارى فى قوله: ولما دنت وفاته، عتب نفســـه فيما تقدم منه عتاباً وتاب إلى الله متابا، ورجع إلى الطريقة المثلـــى، وقـــال إن الآخرة هى الأبقى والأولى، فتزين بالتقوى، واعتصم بالعروة الوثقـــى، وأقـــر بذنوبه واعترف، وأنس إلى قول الله تعالى "أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف"[٢٠]،

وكان من عباد الله المتقين، إلى أن أتاه من ربه اليقين فتوفى - رحمه الله سنة ٢٠٦هـ[٢١].

ويرى الدكتور حسين مؤنس فى ذلك اعتراف من الحكم بسلطة الدين ورجاله - وضرورة العمل على توثيق علاقاته بهم ليكونوا عماد سلطانه.

عبدالرحمن الأوسط والفقهاء

كانت الدروس المستفادة من عصر الحكم الربضى كثيرة ومتنوعة ومن أهمها ضرورة عدم وجود عداء بين نظام الحكم ورجال الدين كما أنه يجب ترك الحبل على غاربه، كما كان الحال فى عصر الأمير هشام الرضا، وأن أفضل الأمور وجود علاقة متوازنة بين رجال الدين ورجال السياسة تسمح بالعمل لصالح المجتمع. وتزيل التناقض الذى غالباً ما يكون مبعثه الحرص على المصالح الشخصية والرغبة فى التفرد بالسلطة واستغلال الدين أو القوة فى حماية هذه المصالح والرغبات.

تجلت هذه السياسة الجديدة فى عصر الأمير عبدالرحمن بن الحكم حيث اعتلى يحيى بن يحيى الليثى مكانة كبيرة وبطبيعة الحال أصبحت جماعة الفقهاء فى مأمن من اضطهاد الدولة، وفى نفس الوقت يمكن أبو الحسن على بنى نافع الملقب بزرياب أنه يحتل فى بلاط نفس الأمير مكانة لا تقل مما كان يتمتع به الفقهاء. بل ربما أكثر من ذلك فقد خرج الأمير بنفسه لاستقباله، وما أن سمع غناءه وحديثه حتى شغف به، فغمره بفضله وإنعامه، وأجرى عليه من الرواتب والأرزاق الشئ الكثير وقدمه على سائر المغنين. وزادت حظوة المغنى زرياب إلى درجة أثارت حسد فقيه عظيم كبقى ابن مخلد الذى طالب بألف ناقة حمراء لأن زرياب أعطيها جملة وحرفتى أشرف من حرفته.

نجح عبدالرحمن الأوسط فى إتباع سياسة متوازنة بين كافة الأطراف حتى قال عنه المؤرخون "أن عصره قد ارتبط بعدد من الشخصيات البارزة منهم، يحيى بن الليثى الذى مثل الجانب الفقهى فى الحضارة الأندلسية وعباس بن فرناس الذى غلب عليه الجانب العلمى، وزرياب الذى تجسد فيه الجانب الحسى، والحكم الغزال أديب الأندلس وسفيرها المميز. مما دفع بالحياة فى الأندلس على عهد عبدالحميد الأوسط إلى التطور والرقى، وأتيحت للبلاد سنوات طوال من الهدوء وازدهرت خلالها الدراسات الدينية واللغوية والأدبية، كما تمتعوا

بدرجات متفاوتة من بعض المتع والملذات حتى غدا هذا العصر .. من أجمل فترات عصر الإمارة فى الأندلس على الإطلاق".

عصر الأمير محمد بن عبدالرحمن

اتخذت مدرسة الفقهاء فى الأندلس خلال تلك الفترة منحى خاصاً بها ألا وهى: الاقتصار على دراسة المذهب المالكى حتى غدا هؤلاء مدرسة متميزة عبرت عنها كلمات الأمير هشام الرضا للفقيه سعيد بن أبي هند حينما مر عليه يوماً ووقف هذا لتحيته فقال له الأمير "لقد ألبسه مالك ثوبا جميلاً"[٢٢] وحافظ المالكيون على هذه المكانة فشكلوا فى الأندلس ما يمكن أن نطلق عليه اسم أهل الفتيا وأهل المشورة، وفتحوا لهم أبواب مجالسهم، واستمعوا إلى آرائهم وربما استجابوا الرحم.

كان معظم هؤلاء الفقهاء مالكيين، أى انحصر علمهم فى مجال الفقه المالكى لا يزيدون عليه شيئاً، وكانت مؤلفاتهم أيضاً لا تخرج عن كونها ملخصات أو شروحات لموطأ مالك بن أنس فقد ألف عبدالملك بن حبيب "الواضحة" ومحمد بن أحمد بن عبدالعزيز العتبى "المستخرجة" أو "العتبية" ومالك بن على القطنى "المختصر فى الفقه" ويحيى بن مزين "تفسير الموطأ".

وكان أكثر هؤلاء الفقهاء تأليفاً هو عبدالملك بن حبيب، وكلها انحصرت فى نفس المجال، أما اصبغ بن خليل وهو الذى دارت عليه الفتيا فى الأندلس خمسين عاماً فقد ذكر ابن الفرض أنه لم يكن له علم بالحديث ولا معرفة بطرقه، وأنه اثنى عليه وصفه بأنه كان حافظاً للرأى مع مذهب مالك وأصحابه، فقيهاً فى الشروط، بصيراً بالعقود[٢٣].

شكلت هذه النخبة من الفقهاء الأندلسيين جماعة مترابطة تلك الأحداث الدامية، ويرى د. مؤنس.. قيام حلف متبادل بينهم وبين الأمراء، وأن الصلح الذى تم بين الحكم الربضى وبينهم، كان فى حقيقة الأمر.. حلفاً بين الظاهرين من أهل الفقه والأمراء.

واتفاقاً على التأييد المتبادل. الفقهاء يؤيدون السلطان ويعلون جاهه بين الناس.. والسلطان يؤيد جاه هؤلاء الفقهاء بإضفاء الاحترام والأموال والحفظ الدينية على من يطلبها منهم[٢٤] ومن هنا بدا للناس ذلك الترابط القوى بين الإمارة الأندلسية والفقهاء المالكيين وحين بدأت تغزو الأندلس اتجاهات علمية حديثة، مثل الاهتمام بعلم الحديث، وجاء بقى من مخلد المتوفى ٢٧٦ ومعه

مؤلفات جديدة منها مصنف أبى بكر بن أبى شيبة، وكتابه الفقه لمحمد بن ادريس الشافعى الكبير - كتاب الأم - وغير ذلك من المؤلفات التى تهتم بعلم الحديث ولم تكن قاصرة على المذهب المالكى. عاد بقى من رحلته الأولى فى حدود سنة ٢٤٤هـ فى إمارة محمد بن عبدالرحيم الأوسط، وهو بحيل على غزير ويصحب معه مجموعة المصنفات التى اطلع عليها - وأخذ يفتى بالأثر دون الالتزام فذهب مالك حتى عده الناس متميزا لا يقلد أحداً، فبدأ انتشار علم الحديث فى الأندلس، وكان فى ذلك هجوماً وتحدياً لشيوخ الأندلس وأصحاب مدرستها الكبرى، فثاروا عليه، وينقل لنا أبو عبدالله القرطبى فى كتابه المفقود (أخبار علماء قرطبة) "وكان بقى أول من كثر الحديث بالأندلس ونشره، وهاجم شيوخ الأندلس فثاروا عليه، لأنهم كان علمهم بالمسائل ومذهب الإمام مالك، وكان يفتى بالأثر فشذ عنهم شذوذاً عظيماً، فعقدوا عليه الشهادات وبدعوه، ونسبوا إليه الزندقة، وأشياء نزهه الله منها"(٢٥).

وقد أورد الضبى هذه الأحداث فى رواية طويلة مهاجماً فقهاء قرطبة، أصحاب الرأى والتقليد، الزاهدين فى الحديث، العارين من علوم التحقيق، المقصرين عن التوسع فى المعرفة، فحسدوه، وتخطى منهم برميه إلى الالحاد والزندقة، وتشاهدوا عليه بغليظ الشهادة، داعين إلى سفك دمه(٢٦).

ويصل الأمر بالفقيه بن مخلد إلى الاختفاء خوفاً من القتل والبحث عن وسيلة يهرب بها من الأندلس نتيجة لتعصب فقهاء قرطبة، على الرغم من أن الرجل قد درس المذهب المالكى، وتلقى العلم عن كثير من شيوخه إلا أن محاولته إدخال علم الحديث وما ترتب عليه من علوم جديدة كادت أن تكلفه حياته لولا أن يسر الله له وساطة الوزير هاشم بن عبدالعزيز عند الأمير محمد عبدالرحمن الأوسط وكتب بقى رسالة إلى الأمير يناشده الله فيها فى دمه ويسأله التثبت فى أمره والجمع بين خصومه وسماع حجته فيأتى فى ذلك بما يوفقه الله تعالى وقام الوزير بشرح قضيته للأمير فأمر بتأمين بقى بن مخلد وإحضاره مع الطالبين له فتناظروا بين يديه، فأدلى بقى بحجته، وظهر على خصومه واستبان للأمير حسدهم إياه لتقصيرهم عن مداه، فدفعهم عنه، وتقدم إليه بمطأطأة قدمه، ونشر علمه، وأمر بايصاله إليه فى زمرة الفقهاء والرفع من منزلته فاعتلى درة العلم ولم يزل عظيم القدر عند الناس، وعند الأمير محمد إلى أن مات رحمة الله عليه(٢٧).

كان ذلك موقفاً ذكياً من الأمير الأندلسى حيث اكتسب إلى جانبه فقيهاً قدر

له أن يكون واسطة العقد بين علماء الأندلس فى ذلك الوقت، كما أنه جعل من نفسه حكماً من العلماء ومن ثم ثبت مكانة الأمراء والدولة، وجعل الجميع يحسبون لها ألف حساب.

ولم تكن تلك هى الحادثة الوحيدة التى وقف فيها الأمير محمد فى مواجهة فقهاء قرطبة بل تكرر ذلك الموقف مع العالم محمد بن عبدالسلام الخشنى المتوفى ٢٨٦هـ/٨٨٩م، ولقد سعى بهذا الرجل واتهم بنفس الاتهامات التى وجهت إلى بقى بن مخلد ولأنه رفض الاختفاء والهرب لقناعته بأنه على حق فيما يقول... فقد قام صاحب السوق بحبسه وسبه حتى قال له: أيه يا عدو الله عدو نفسه أأنت القائل أن فى القرآن ناسخاً ومنسوخاً؟!. فرد عليه الخشنى: إن الله تعالى يقول فى محكم كتابه (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) [٢٨]، فسطى صاحب السوق على الفقيه سطوة غشوماً، ورماه فى السجن.

وتدخل الأمير محمد بن عبدالرحمن مرة أخرى لإنقاذ هذا العالم من سطوة فقهاء المدينة، وأمر بإطلاق سراحه، ثم اعتذر له، وطلب منه أن يطمئن، وأن يعمر مجلسه، وينشر علمه.

ولذلك كان الخشنى يبدأ مجلس تعليمه، بالدعاء للأمير محمد ويختتم مجلسه بالدعاء له أيضاً[٢٩].

كان التعارض واضحاً بين أصحاب المدرسة المالكية ومدرسة الحديث التى مثلها بقى بن مخلد، مما أتاح لسلطات الدولة التدخل بينهما، إما بالحماية المباشرة كما حدث فى المثالين السابقين، أو بالتعيين فى وظائف مهمة. ومن ذلك ما تعرض له الفقيه القرطبى قاسم بن محمد قاسم بن سيار المتوفى ٢٧٨هـ/٨٩٠م، فهذا الرجل قد رحل إلى المشرق. وتعلم على يد أساتذة المذهب الشافعى هناك، وحينما عاد إلى الأندلس اصطدم بعقلية فقهاء المالكية، ولولا نجاح قاسم فى الحصول على حماية الأمير محمد.. لناله من فقهاء المالكية ما نال بقى ومحمد بن عبدالسلام. وقام الأمير محمد بتعيينه وثائقياً خاصاً به.

وفى نهاية القرن الثالث الهجرى، حدث تحالف بين الفقهاء والسلطة فى الأندلس فى مقاومة تيارات دينية وفدت إلى الأندلس، منها التشيع، والاعتزال، بل .. وبواكير الفكر الفلسفى والذى مثله محمد بن مسرة، وظهر فى قرطبة من يتهمون بالميل إلى هذه المعتقدات، وتعرض بعضهم للاضطهاد والسجن والطرد من الأندلس.

ويتطلب الأمر دراسة أخرى أكثر استفاضة.

المراجع

١-جذوة المقتبس، ص٧.

٢-قضاء قرطبة: ص ص٨: ١١.

٣-المصدر السابق، ص٢٧.

٤-افتتاح الأندلس، ص٤٠ – طبعة كوديرا.

٥-شيوخ العصر الأندلسى، ص٥ وما بعدها.

٦-ابن القوطبة: افتتاح الأندلس، ص٦٣ – طبعة الأبيارى.

٧-محمد عبدالحميد عيسى: تاريخ التعليم فى الأندلس، ص ص٨٠-٨١.

٨-أخبار مجموعة.

٩-محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، ص٢٢٩.

١٠-نفسه، ص٢٣٠.

١١-عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص٢١٩ – تاريخ وحضارة المسلمين فـــى الأندلـــس، ص٢٥٥.

١٢-حسين مؤنس: شيوخ العصر، ص١١٣.

١٣-أخبار مجموعة، ص١١٣، طبعة إبراهيم الإبيارى.

١٤-محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، جـــ١، ص٢٣٠.

١٥-ابن عذارى: البيان المغرب، جـــ٢، ص٧٧.

١٦-المصدر السابق، ص٧٩.

١٧-عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص٢٢٦.

١٨-أخبار مجموعة: ص١٣ وما بعدها.

١٩-محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ص٢٤٨.

٢٠-سورة الأنفال، الآية ٣٨.

obeikan.com

٢١-ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، ص٨٠.

٢٢-ابن القوطية: افتتاح الأندلس، ص٤٤.

٢٣-ابن الفرضى: علماء الأندلس، جـ١، ص٧٧ – الترجمة رقم ٢٤٧.

٢٤-حسين مؤنس: شيوخ العصر فى الأندلس، ص٣٥.

٢٥-أكرم ضياء العمرى: بقى بن مخلد، ص٥٣.

٢٦-الضبى: بغية الملتمس، ص٢٤٥.

٢٧-محمد عبدالحميد عيسى: المرجع السابق، ص٩٦.

٢٨-سورة البقرة، الآية ١٠٦.

٢٩-محمد عبدالحميد عيسى، المرجع السابق، ص٩٩.

obeikan.com